د. بلخضر طيفور

جامعة ابن خلدون - تيارت / الجزائر

محاضرات في ابستيمولوجيا علم السياسة

****

النماذج المعرفية في علم السياسة

- ✓ **أولا: مفاهيم النموذج المعرفي**
- ✓ **ثانيا: الأنظمة المعرفية المفتوحة، المغلقة، المختلطة**
- ✓ **ثالثا: النماذج المعرفية السائدة في علم السياسة**

أولا: مفاهيم النموذج المعرفي

النموذج المعرفي هو الذي يرجع ويرتكز على تلك الأصول الإبستيمولوجية المعرفية، وليس العكس، لأن هذه الأخيرة تبقى ثابتة على مرّ الزمن حتى وإن طالها التشكيك، بينما النموذج المعرفي هو مؤقت وقابل للتغير بمجرد حدوث أزمة معرفية تؤدي مباشرة إلى نموذج معرفي جديد. وعلى الرغم من أن ما قدمه Kuhn حول النموذج المعرفي انصب في معظمه على تطور العلوم الطبيعية، حيث يعترف قائلا:

(... ولعل الأهم من ذلك كله أنني قضيت عاما كاملا وسط مجتمع متخصص يضم أساسا علماء في العلوم الإجتماعية واجهوني بمشكلات لم أعهدها من قبل تتعلق بأوجه الإختلاف بين هذا الطراز من الجماعات وبين جماعات علماء الطبيعة الذين نشأت بينهم. وأذهلني بوجه خاص كم ومدى الاختلافات الصريحة بين العلماء الإجتماعيين بشأن طبيعة المشكلات والمناهج العلمية المشروعة. وأثار كل من التاريخ والتعرف المباشر شكوكي في أن من يمارسون العلوم الطبيعية لديهم إجابات على هذه المسائل أشد رسوخا أو أكثر دواما وتحديدا، مما لدى زملائهم في مجال العلوم الإجتماعية. ومع هذا يمكن القول بصورة أو بأخرى إن ممارسة علوم الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو الأحياء لا تثير جدالا بشأن القضايا الأساسية كالذي يبدو اليوم واسع الإنتشار بين علماء النفس أو علماء الإجتماع على سبيل المثال، وعندما حاولت استكشاف مصدر هذا الإختلاف، قادتني المحاولة إلى إدراك الدور الذي يقوم به في مجال البحث العلمي ما اصطلحت على تسميته منذ ذلك الحين بالنماذج الإرشادية...)[1].

برز مصطلح النموذج المعرفي **"Paradigm"** مع فلسفة العلوم في الستينيات من خلال أعمال "توماس كوهن" Thomas Kuhn* أساساً الذي يرى أن النموذج المعرفي هو مجموعة من الفرضيات الأساسية حول موضوع

---

[1] توماس كون، بنية الثورة العلمية ص 22.

* Thomas Kuhn: عالم أمريكي، أستاذ الفلسفة بمعهد ماساشوستس ولد عام 1922، بدأ تدريس الفيزياء وهو لا يزال طالبا للدراسات العليا، تلقى منحة دراسية لمدة ثلاث سنوات بجامعة هارفارد، بدأت إرهاصات نظريته مع سلسلة من المحاضرات عنوانها "البحث عن نظرية لعلم الفيزياء" ألقاها في معهد لوويل في بوسطن 1951، نال درجة الدكتوراه في علم الفيزياء، تحول عن الفيزياء إلى فلسفة تاريخ العلم، يقول عن نفسه "اطلاعي على نظريات علمية فات أوانها هدم جذريا بعض مفاهيمي الأساسية عن طبيعة العلم"، قدم نظريته العلمية عن حركة العلم في التاريخ في كتابه (بنية

علمي؛ فالنموذج المعرفي هو نمط تفكير في حقل استقصاء ينظم النشاط العلمي ويرسي معايير للبحث ويولد النموذج الإجماع والإتساق والوحدة بين الباحثين. وعلى الرغم من أن كوهن لم يقل الكثير حول العلوم الإجتماعية والسياسية، إلا أن العديد من الباحثين في هذا المجال سرعان ما وضعوا يدهم على حججه بهدف تقوية الأسس التاريخية والتنظيمية والإجتماعية والسياسية لاختصاصاتهم المختلفة وتوضيحها[1]، خاصة في مجال العلوم السياسية حيث تم توظيف مفاهيم النموذج المعرفي في كثير من الأحيان من طرف أنصار النزعة الكمية (مقاربات المدرسة السلوكية في الخمسينات والستينات بالإضافة إلى نظريات الخيار العقلاني في تسعينات القرن العشرين) في الدراسات السياسية بشكل مبالغ فيه من أجل إلغاء وإزاحة باقي أشكال البحث في المعرفة السياسية.

استخدم توماس كوهن مصطلح نموذج معرفي بعدة معاني مختلفة، فهو من ناحية يُعبّر عن مجموعة من المعتقدات والقيم المتعارف عليها والتقنيات المشتركة بن أعضاء مجتمع علمي بذاته، ويشير من ناحية أخرى إلى عنصر منفصل في هذا المُركب الجامع، أي الحلول الواقعية للألغاز التي إذا ما استُخدمت كنماذج يمكن أن تحل محل القواعد الصريحة كأساس لحل الألغاز المتبقية في نطاق العلم القياسي[2]. كما أن للنموذج المعرفي دلالة على إنجاز علمي بواسطة مجتمع معرفي له خصوصية ذاتية، هذا المجتمع يطرح نموذج ينبعث أو ينشأ من تقاليد متجانسة للبحث العلمي، كما أنه أيضا طريقة أو رؤية عامة للنظر إلى العالم[3]؛ والنموذج المعرفي كمصطلح غالبا ما يُستخدم في العلوم السياسية كما هو الحال في علم الإجتماع كبديل لكلمة النظرية أو النظرية العامة، فعلماء السياسة حاولوا تشكيل تصور ومفهوم حول النموذج المعرفي مع قصد واضح من أجل صنع وضوح فيما يخص الفرق الجوهري بين العلوم الطبيعية والعلوم الإجتماعية، والسبب كما وضحه توماس كون هو غياب الإجماع النظري في أي حقل من حقول العلوم الإجتماعية، واليوم عندما يحاول باحث ما شرعنة نظريته أو نموذجه كإنجاز ثوري فهناك دائما يوجد باحث آخر يعرقله ولا يوافقه الرأي[4].

تجدر الإشارة إلى أن أغلب استخدامات مصطلح النموذج المعرفي في الدراسات الإجتماعية والسياسية فشلت في عكس العناصر التحليلية لتصور توماس كون للنموذج الإرشادي كما طرحه[5]، وبدل وجود إطار أو تقليد بحثي معين لتوليد النماذج والمعارف في العلوم السياسية وُجدت عدة نماذج معرفية اتسمت أغلبها بالتصارع، وهي الأنساق التي تتسم بها النماذج المعرفية وهي التنافس بين تلك النماذج. وقد تختلف النماذج المعرفية في معالجتها لموضوع واحد، فمثلا النموذج المحلي من داخل الثقافة يفسر الطباع التي تصور الأيديولوجية السائدة بين

الثورات العلمية) سنة 1962. من مؤلفاته:(The Essential Tension) ، (Selected Studies in Scientific Tradition and Chang)، (The Copernican Revolution).

[1] غريفيثس، مارتن، وتيري أوكالاهان. المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية. ترجمة ونشر: مركز الخليج للأبحاث، الإمارات العربية المتحدة، 2008، ص 199.

[2] توماس كوهن، بنية الثورات العلمية، (ترجمة: شوقي جلال)، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1992، ص 221.

[3] Encyclopedia of Sociology, (Edgar F. Borgatta and Rhonda J. V. Montgomery), Second Edition. USA, Macmillan Reference, an imprint of The Gale Group, New York, 2000, p 2024.

[4] Robert E. Goodin, and Hans-Dieter Klingemann, A New Handbook of Political Science, Published in the United States by Oxford University Press Inc., New York, 1996, p 104.

[5] Encyclopedia of Sociology,(Borgatta F. Edgar, and others), op. cit, p 2027.

أعضاء ثقافة معينة بإيعازها إلى الثقافة المحلية، أما النموذج الخارجي من خارج الثقافة فينظر إلى محددات من خارج الثقافة المعنية ويتم طرح النماذج المحلية باعتبارها تحمل خصوصيات الثقافة المحلية والنماذج الخارجية باعتبارها كونية، وغالباً ما يتم الإفتراض أن النماذج المحلية يتم اكتشافها وليس اختراعها من قبل الباحثين، وفي واقع الأمر يمكن القول أن النماذج المحلية، هي تركيبات إقصائية، يقوم الباحث بصياغتها بناءاً على سمات بارزة في المواضيع المبحوثة، فهي ليست بحد ذاتها النموذج الأصلي وإنما تلعب إسقاطات الباحثين دورا في صياغتها[1]. ولا يوجد مطلقاً نموذج معرفي يستطيع أن يفسر كل الحقائق، أو أن يتعامل مع كل المعلومات المؤثرة، الأمر الذي يفرض التحديد والإختيار، ويستحيل من حيث المبدأ ممارسة العلم بدون قدر معين من المعتقدات الأولية والإفتراضات الميتافيزقية الأساسية، وهذا يدل على الطبيعة النسبية لأي نموذج معرفي بغض النظر عن تطوره وقدرته الإقناعية[2].

والنماذج المعرفية كأنماط مرجعية أو كنظرية وإطار فكري تُستخدم في خلق مواضيع جديدة، وفي حقيقة الأمر كلمة **"Paradigm"** لها جذور ترجع إلى الفكر اليوناني ويوازيها عبارة المقارنة المتجاورة **"Side-by-side comparison"**، وفي العصر الحديث استعمل عالم اللسانيات السويسري Ferdinand de Saussure مفهوم النموذج المعرفي كتصور وليس كمفهوم إجرائي ووظف في مقابله مفردة(Syntagme)** بمعنى تنظيم العناصر وفق ترتيب معين لتشكل جسما مركبا، و **"Paradigm"** بمعنى إحلال نماذج في مكان نماذج أخرى أي استبدالها[3]، وضمن إطار فلسفة العلم يُعتبر النموذج المعرفي بمثابة النظرية، وتاريخ العلم يمكن تصنيفه أو تمييزه بواسطة النماذج المعرفية المتغيرة[4]. وتبقى فقط مسألة تقبل النماذج المعرفية الجديدة في المجتمعات العلمية التي غالبا ماتجد نفسها تتصارع فيما بينها، والأمر كما يراه "ماكس بلانك" أن الحقيقة العلمية لا تنتصر بإقناع خصومها، وجعلهم يرون النور من خلالها، ولكن تنتصر بموتهم ونشوء جيل جديد يتعود عليها، لكن يبقى هذا الأمر نسبياً.

غموض مفاهيم الجذر الأصلي:

ترتكز فلسفة العلم وتاريخه عند توماس كوهن على مفهوم الجذر الأصلي، والعلم السوي ينشأ حين يتمكن متخصصوه من وضع أسس مشتركة فيما بينهم أو جذر* ثابت وكل ثورة علمية علمية تعني تغييرا في بنية ذلك الجذر. ولقد استخدم كوهن مفهوم الجذر في الطبعة الأولى من كتابه (بنية الثورات العلمية) المنشور سنة 1962 بعدة معاني مما أضفى غموضا حول المصطلح وهي ملاحظة لمارغريت ماسترمان Margarett Masterman

---

[1] روجر هيكوك ،إدوارد كونت، مجدي المالكي، رائد بدر. البحث النقدي في العلوم الإجتماعية: مداخلات شرقية–غربية عابرة للإختصاصات، ترجمة: أليز أغزريان، فلسطين: معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، جامعة بيرزيت ومعهد علم الإنسان الإجتماعي– الأكاديمية النمساوية للعلوم 2011 ، ص 18.

[2] محمد نصر عارف، ابستيمولوجيا السياسة المقارنة، ص 59.

** Syntagme: مفردة فرنسية تدل على وحدة التعبير في تركيب الكلمات، أي نمط تشكل العبارت والجمل في اللغة، ويقابله في اللغة العربية علم النحو.

[3] Angèle Kremer-Marietti, Le paradigme scientifique, cadres théoriques, perception, mutation, Université de Picardie, Amiens Groupe d'Études et de Recherches Épistémologiques, Paris.

[4] William A. Darity, and others, International Encyclopedia of the Social Sciences, 2nd edition, (Vol.06), p 125.

* ترجمة لمصطلح Paradigm كما فسره توماس كوهن في طبعته الأولى لكتاب "بنية الثورات العلمية"، وبعد عدة انتقادات اضطر كوهن إلى استبدال الجذر الأصلي بمصطلح "النسيج الإنضباطي" Matrice disciplinaire وقد ترجمها السيد تفادي في الثورات العلمية لإيان هاكينج بالنموذج الإرشادي وفضلت يمنى طريف الخولي مصطلح " النموذج القياسي الإرشادي".

أقرها كوهن فيما بعد، وبالرجوع إلى الترجمة العربية يمكن أن نشتق من هذه الفقرة : (وإني باختياره "الجذر الأصلي" أريد أن أوحي بأن بعض الأمثلة المعترف بوصفها عملا علميا حقيقيا، الأمثلة تشمل القوانين والنظريات والتطبيقات والأساليب التجريبية، إنما تقدم أنماطا تولّد تقاليدا خاصة ومتماسكة من البحث العلمي ...). وانطلاقا من هذا المفهوم الجوهري قدّم كوهن عدة معاني للجذر يمكن تلخيصها كالآتي:

- **الجذر الأصلي:** هو مجموعة الأمثلة العلمية التي تقدم للطلبة بوصفها نماذج علمية.
- **الجذر الأصلي:** مجموعة النظريات والقوانين والمعتقدات والتطبيقات السائدة لدى مجتمع علمي ما في فترة تاريخية معينة.
- **الجذر الأصلي:** هو مجموعة التقاليد الخاصة والمتناسقة في البحث العلمي لدى مجتمع علمي معين[1].

القراءات المختلفة للجذر الأصلي أو النموذج الإرشادي وما صحبه من ملاحظات وانتقادات دفعت كوهن إلى تحديد هذا المصطلح في مقدمة طبعته الثانية لنفس الكتاب سنة 1970، وقد قام مالهيرب Jean François Malherbe في كتابه (كارل بوبير والوضعية المنطقية) بتلخيص هذه التوضيحات التي قدّم من خلالها تعريفا مقبولا لهذا المصطلح بأنه : (الجذر الأصلي هو مجموعة عناصر تعمل مجتمعة، والعناصر الأساسية هي التعميمات الرمزية والإعتقادات الميتافيزيقية والقيم والأصول والأمثلة بالمعنى الحرفي للكلمة).

بنية الجذر الأصلي (العناصر الأساسية المشتركة بين أعضاء مجتمع علمي):

أ- التعميمات الرمزية: وتتمثل في القوانين العلمية وهي معارف مقبولة من طرف مجموعة من العلماء المتخصصين دون أن تكون هناك صعوبة في فهمها من طرفهم، وعادة ما تكون في شكل تكميمات رياضياتية عادة ما تماثل قوانين الطبيعة لكنها تقدم تعريفات للمفاهيم التي تحتويها.

ب- الإيمان الميتافيزيقي: يعبّر عن الإلتزام الجماعي ببعض المعتقدات العلمية الراسخة في أي مجتمع معرفي ما.

ج- القيم: هي عناصر تُكوَّن لدى مجموعة منتسبين لتخصص علمي معين الشعور بوحدة الإنتماء، مثل قيم الموضوعية والدقة الكمية ويقينية التنبؤ، لكن الإلتزام بهذه القيم متفاوت من عضو لآخر حسب تكوينه الشخصي، فالحتمية مثلا هناك من يفهمها بمعناها المطلق وهناك من يعطي لها قيم نسبية.

د- الأصول أو الأمثلة: وتتمثل في جملة الحلول والإجابات التقليدية التي يقدمها الأساتذة لطلبتهم أو هي مجموعة الأساليب البحثية الراسخة في نموذج معرفي معين وهي بمثابة أصول موحدة تعيد إنتاج نفس الجذر الأصلي[2].

بنيـة النمـوذج المعرفي في علم السياسة Structure of Paradigm in political science

في دراستهما " النماذج المعرفية المتنافسة في علم السياسة " حدد هولت وريتشاردسون خمسة عناصر للنموذج المعرفي كما وردت عند توماس كوهن هي[3]:

---

[1] عثمان علي، بنية المعرفة العلمية عند غاستون باشلار، (مذكرة ماجيستر غير منشورة 2008/2007)، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة منتوري – قسنطينة – ، ص 45.

[2] نفس المرجع السابق، ص ص 46 – 47.

[3] نفس المرجع السابق، ص 63، نقلا عن Robert holt, and John Richardson, Competing Paradigms in comparative politics, in Robert holt and john turner, the methodology of comparative research.

1 - العنصر المفاهيمي Conceptual element: وهو منظومة المفاهيم التي تُستخدم في صياغة الفروض النظرية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والتي تحدد بؤرة البحث الأمبريقي، ولا يوجد تقنيات محددة لاشتقاق هذه المفاهيم إمبريقياً بل يتم اختبارها وتحديد مضامينها بصورة تحكمية.

2 – العنصر النظري Theoritical element: للنظرية استخدامات عديدة في العلوم الإجتماعية، وفي هذا السياق النظرية هي مجموعة الفروض المترابطة منطقيا سواءا كانت بديهية ومُسلَّم بها أو حقيقة نظرية قابلة للتصديق أو التفنيد.

3 - قواعد التفسير Rules of interpretation: هي القواعد التي تصف الظواهر التي تتم ملاحظتها عن طريق المرجعيات التي يتوقف عليها خطأ أو صدقية تنبؤات النظرية[1].

4 - عنصر حصر بؤرة الإشكالات البحثية Puzzling element: يُعتبر بمثابة المرجعية التي يستند إليها المجتمع العلمي الذي يتبنى نموذج معرفي ما، وذلك بتحديد الإشكالات البحثية الواجب بحثها ودراستها والتي سوف يكون لها دور في ترسيخ ذلك النموذج المعرفي عن طريق تطويره وإثبات صدقية نظرياته.

5 - عنصر التحكم التكويني Ontologic – Predictive: ويقصد به مجموعة عناصر النموذج المعرفي الذي من خلاله يستطيع تحديد العناصر المفاهيمية والنظرية ومحددات الإشكالات البحثية، كما يحدد شكل القوانين التي سوف يتم التوصل إليها، فهو بمثابة عنصر الضبط في النموذج المعرفي[2].

ويثير عبد الوهاب المسيري فكرة مسترسلة مع أهمية النموذج المعرفي التي جاء بها كوهن ويرى أن الخرائط الإدراكية أي النماذج المعرفية موضع اهتمام متصاعد بعد أن حاولت المدارس الوضعية تجاهل نظرية المعرفة، ويرى أن النماذج أوالخرائط الإدراكية والمعرفية تولد إدراكاً مختلفا من شخص لآخر ومن حضارة لأخرى لنفس الظاهرة مع وجود عقل مشترك إنساني وإلا تشظت الإنسانية[3]. لكن هذا لا يعني أن هناك توافق بين النماذج المختلفة، فقد يكون الإختلاف حتى في داخل النموذج المعرفي الواحد نفسه، كما توجد عدة أنساق تحكم سيرورة النماذج المعرفية، فقد تتميز النماذج بالتجاور مثلما هو الحال بالنسبة لكل من النموذج السلوكي والنموذج مابعد السلوكي في حقل السياسة المقارنة، أو قد يكون هناك طابع التنافس وهذا يميز أغلب النماذج السائدة في جميع حقول المعرفة الإجتماعية بل وحتى العلوم الطبيعية.

ولعلّ أكثر النماذج حدة أو التي تتميز بالتصارع الذي يؤدي في النهاية إلى اندثار أحد النماذج المتصارعة هي تلك النماذج التي تنشد مفهوم الإزاحة، ولقد تعرض المفكر الفرنسي "ميشيل فوكو" Michel Foucault في كتابه (الكلمات والأشياء) إلى مفهوم الإزاحة المعرفية **"Displacement"** وما يترتب على ذلك من انقطاع أو

---

[1] نفس المرجع السابق، ص 64.

[2] نفس المرجع السابق، ص 65.

[3] عبد القادر سعيد عبيكشي، إشكالية التحيز في تحديد المصطلح السياسي الحديث، (مذكرة ماجيستر غير منشورة)، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، ، ص 21.

فراغ معرفي، وربط فوكو عملية التحولات المعرفية بوجود حالة من التفتيت والتشرذم في الفكر وفي حقول المعرفة.

كما أشار "فوكو" أيضا إلى الحدث الذي يؤدي في النهاية إلى التطور أو التخلي عن المفاهيم السابقة، وسمى ذلك بالتحريك الحدثي، وعكس الإزاحة يرى نفس المفكر في كتابه (حفريات المعرفة) **"L'Archéologie du Savoir"** (يقصد بها أصول المعرفة) أن تطور المعرفة لا تنكر إمكانية ظهور عبارات جديدة في ارتباطها بأحداث خارجية، ومهمتها هي إبراز الشروط التي يحدث فيها ذلك الإرتباط وأن تبين على وجه الدقة طبيعته، شكله وحدوده ونظامه وقانون إمكانه[1]، فالسبيل الذي ينزع "فوكو" إلى اتباعه يتمثل في القيام بإعادة قراءة جذرية للممارسات والخطابات، وعلى خلاف تاريخ الذهنيات، تتم إعادة القراءة هذه من خلال التشديد على القطيعات والإنقطاعات الكبرى التي فعّلت الممارسة والمعرفة البشريتين.

وتتعارض إجابات "فوكو" أولا مع الإجابات التي تقدمها التصورات التقليدية، التي ترى التاريخ كانسياب خطي وتراكمي للأحداث. فهو على خلاف ذلك يرى أن "القوى التي تُفعَّل في التاريخ لا تخضع لأية غاية ولا لأية حركة ميكانيكية، إنما تخضع لصدفة الصراعات". تعني هذه الأطروحة أن الأسس الثقافية التي يقوم عليها مجتمع ما ليست محصلة أبدية للمعارف وطرق التفكير، بل هناك قطيعات جذرية في تاريخ الأفكار، وهو نفس الأمر الذي طرحه توماس كوهن.

ثانيا: الأنظمة المعرفية المفتوحة، المغلقة، المختلطة

تجدر الإشارة إلى أن وصف النماذج المعرفية في العلوم السياسية بالمفتوحة أو المغلقة أو المختلطة يشير فقط إلى الأساليب المنهجية المتوخاة في تلك النماذج ولا ينصرف أبدا إلى الفلسفة الكامنة أو المؤطرة التي تقف خلف تلك النماذج المعرفية.

1. النسق (النموذج) المعرفي المفتوح:

وهو النسق أو النموذج الذي يكون ولاء الباحث فيه للحقيقة الواقعية أكثر من ولائه للنظرية أو للفلسفة التي يتبناها، ويكون تعطشه لاكتشاف جوانب وخفايا الظواهر التي يدرسها أكثر من رغبته في إثبات انطباق النظرية المستخدمة، وتسود هذا النموذج المعرفي القيم العالمية والأمانة والعدل والتجرد من المصلحة، وهناك عدة أبحاث وأمثلة التي تدخل في نطاق هذا النموذج في الدراسات السياسية مثل بعض دراسات المدرسة السلوكية في علم السياسة كالمقاربات النظرية التي قدمها دافيد ايستون وغابريال آلموند أو كارل دويتش .... إلخ. وعلى الرغم من الإتهامات التي وُجهت لهذه المقاربات بالإنحياز أو مناصرة مذهب سياسي بعينه إلا أنها كانت عبارة عن جهد بحثي حاول أن يرسي قواعد مشتركة عالمية في تفسير بعض الظواهر السياسية.

[1] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص 155.

2. النسق (النموذج) المعرفي المغلق:

وقد أطلق عليه توماس كوهن مصطلح " الأرثوذكسية العلمية "، حيث يتميز هذا النوع من الأنساق المعرفية بالإنغلاق حول الذات وحول التجارب الخاصة، حيث أنها توصف بالإنغلاق والإنحياز المعرفي سواء للتجربة الأوروبية أو الأمريكية بدعوى نموذجة السلوك الإنساني، أي أن هناك مرجعيات يجب الإرتكاز عليها في الدراسات السياسية، أي تقديم القيم الخاصة بوصفها قيم كونية أو عالمية مثل تقرير ما هو أفضل لترقية حقوق الإنسان أو تحديد القيم المرتبطة بالتطور والنجاح والفاعلية. قد يكون هذا صحيحا من زاوية أن الحقيقة نفسها ربما تعطي معاني مختلفة للشعوب المختلفة.

لكن هذا لا يبرر عدم مراعاة تجارب الآخرين في كل المجالات والمستويات، فلكل ظاهرة سياسية خصوصية معينة ونابعة من مجتمعات مختلفة. فمثلا فيما يخص تصنيف الأنظمة السياسية، غربية وغير غربية، أو عالم أول وثان وثالث، أو شمال جنوب ... إلخ، الكثير من الأنظمة التي تقع في تصنيف معين في حقيقة الأمر ليست لها نفس أوصاف باقي الأنظمة السياسية التي تقع في التصنيف، أو أن تتم محاولة إسقاط بعض النظريات السياسية بكل الطرق الطرق الممكنة على شعوب ومجتمعات من المستحيل أن تطبق فيها تلك النظريات مثل نظرية التنمية السياسية أو التحديث السياسي، هذه النظرية في حقيقة الأمر تصلح فقط لبعض الأنظمة وليس لكلها.

3. النسق (النموذج) المعرفي المختلط:

وهذا النوع من الأنساق المعرفية يقع بين النموذج المفتوح والمغلق، بحيث أنه يطبق أساليب منهجية معينة في الدراسات لكنه يرفض الإنغلاق على التجربة الأوروبية أو الأمريكية، وينتقد محاولات تعميمها وفرضها كنسق عالمي يستطيع استيعاب مجمل التجارب البشرية في تطورها التاريخي ويحدد شكل مستقبلها، ويهدف النسق المختلط إلى الإنفتاح على جميع التجارب والثقافات والمجتمعات[1]. وقد كانت هناك محاولات لبعض علماء السياسة الغربيين لتفسير الظواهر السياسية الغير غربية من منطلقاتها الخاصة والذاتية، لكن القليل من تلك المحاولات نجح جزئيا. وهذا الواقع في حقيقة الأمر لا يتم إلقاء اللوم فيه على علماء السياسة الغربيين بقدر ما يلام الباحثين الذين ينتمون إلى مناطق جغرفية أخرى في عدم محاولتهم بناء نموذج أو نسق معرفي خاص بهم. فبدل أن ينطلقوا من تجاربهم الذاتية نراهم ينهلون فقط من النظريات الغربية وتقدم على أساس أنها مسلمات.

ورغم ذلك إلا أن هناك ما يشبه الإجماع على أهمية استخدام النموذج المعرفي كمدخل لدراسة نظريات العلوم الإجتماعية، وهو ما تم بالفعل في علم السياسة، حيث أجريت عديد الدراسات لاستكشاف بعض النماذج المعرفية التي سادت في هذا الحقل المعرفي[2]. والمهم هنا ليس الكشف والتعريف بتلك النماذج، وإنما التعرف على أصولها وجذورها المعرفية التي تستند إليها.

---

[1] للتوسع أكثر يرجى الرجوع إلى : محمد نصر عارف، ابستيمولوجيا السياسة المقارنة، ص 147 – 166.

[2] محمد نصر عارف، مرجع سابق، ص 66.

ثالثا: النماذج المعرفية السائدة في علم السياسة

تفحُص أدبيات علم السياسة بصفة عامة، يُبرز وجود ثلاثة اتجاهات أو مدارس فكرية مختلفة في وجهات نظرها حول طبيعة البحث السياسي وغاياته وأهدافه ومناهج بحثه، وفي واقع الأمر فإن هذه الخلافات داخل علم السياسة تعكس صراعا أعمق وأقدم على مستوى النموذج المعرفي وعلى المستوى الإبستيمولوجي المعرفي بين النظريات والإتجاهات المتضاربة حول طبيعة المعرفة الإنسانية بصفة عامة[1]. ويمكن تصنيف تلك الأصول إلى ثلاث مدارس كبرى في المعرفة السياسية، وهي:

1)- المدرسة المثالية [الفلسفية] Idealism

2)- المدرسة الوضعية [الإمبريقية] Positivism

3)- المدرسة النسبية [المنظوراتية] Relativism

1- المدرسة المثالية (الفلسفية) Idealism

المثالية أو الطوبوية لها تاريخ عريق في الفكر الإنساني، وترجع وتبدأ أصولها مع آباء الفلسفة الأوائل منذ أفلاطون، والمثالية وفقا لتصنيف الثنائيات المتناقضة فهي لها عدة أشكال، فمثلا في الميتافيزيقا، المثالية تعني أن الإيمان هو السبيل الوحيد لمعرفة الواقع، فالمفاهيم الميتافيزيقية والإبستيمولوجية للمثالية تجتمع في شكل واحد هي الأفكار، كما أنها في ثنائية أخرى تناقض المذهب المادي والفيزيائي؛ وفي حقل علم السياسة فإن المثالية تناقض المذهب الواقعي **"Realism"**، ولذلك فهي تضم جملة من المفاهيم على شاكلة: التصورات البنيوية، القوانين، المبادئ، الأخلاق، المعايير القيمية...إلخ، وهي كمذهب فكري سياسي تبحث دائما فيما يجب أن يكون، وليس فيما هو كائن[2].

والمثالية في علم السياسة لا تُطلق من باب المديح، فالمثاليون أغلبهم منفصلون عن التفكير القائم ويضعون المبادئ الأخلاقية قبل الإعتبارات العملية، ولا يتصلون إلا قليلا بالعالم المحيط بهم، وهم يرمون إلى بناء عالم مثالي خال من التناحر والصراعات كما يؤمنون بالتقدم ويرون أن آليات الديمقراطية، والنقاش تحت حكم القانون، ووفقاً لالتزام أخلاقي، هو السبيل الوحيد للممارسة السياسية السليمة، وذلك لاعتقادهم بأن ما يجمع البشر أكثر مما يفرقهم؛ ويرى البعض أن المثالية هي نتاج مجموعة معينة من الظروف الإجتماعية والسياسية والتاريخية، وليست مجموعة قواعد أخلاقية خارجة عن الزمن ومكرسة من أجل أهداف كونية، والدليل أنها حينما واجهت مشكلة سياسية ملموسة، لم تتمكن من إيجاد معيار مطلق ومجرد من كل مصلحة من أجل إيجاد الحلول للمشاكل القائمة[3].

---

[1] محمد بشير المغيربي، قراءات في السياسة المقارنة: قضايا منهاجية ومداخل نظرية. الطبعة الثانية، ليبيا: منشورات جامعة قاريونس، دار الكتب الوطنية بنغازي، 1998. ، ص 15.

[2] International Encyclopedia of the Social Sciences, (William A. Darity), 2nd edition, vol.03, p.p 547-548.

[3] مارتن غريفيثس، وتيري أوكالاهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، ص ص 361-362.

وتطور علم السياسة طغى عليه الطابع الفلسفي والمثالي منذ البداية، وبشكل واضح منذ العصور الكلاسيكية وحتى بداية العصور الحديثة، حيث كان ينظر للسياسة طوال تلك الفترة على أنها حقل معياري وأخلاقي، وبالتالي كانت مرتبطة بفرع الفلسفة الأخلاقية، وكما هو حال معظم الفكر الكلاسيكي لم تعر الدراسات السياسة اهتماما كبيرا بالمسائل الإمبريقية، حيث انصب معظم اهتمام المفكرين السياسيين على ما ينبغي أن يكون بدلا مما هو كائن، وكان من أهم المواضيع التي حظيت باهتمامهم هي طبيعة الدولة المثالية، والعلاقة المناسبة بين الأهداف الإنسانية الميتافيزيقية، والغايات المطلقة للحياة السياسية، إلا أن هذا لا يعني انعدام بعض الدراسات الجادة، فالمثالية حتى وإن تمسكت بأن الواقع يتأسس من خلال الفكر، الروح، وبعض الذاتيات غير المادية، إلا أنها وضعت الكثير من الأسس التي تتبناها الحياة السياسية اليوم، فقد اشتد طلب علماء السياسة وحتى السياسيون أنفسهم على ضرورة التمسك ولو نسبيا بقيادة بعض المعايير القيمية والأخلاقية للتنظيم السياسي ولصنع القرار، لخلق مسافة معينة بين العالم غير الكامل وبين ذواتنا وطبائعنا كبشر[1]. وتلتقي المثالية مع اليوتوبيا **"Utopias"** في أن كلاهما يؤسس لمجتمع كامل ومثالي، حتى وإن كانت مثالية وضعية فإنه من الصعب جدا تطبيقها على أرض الواقع[2].

وأدبيات الدراسات السياسية حافلة ببعض المفكرين الذين ركنوا إلى المثالية في بعض إنتاجهم الفكري، منذ أرسطو الذي حلم بأن يحكم الشعب نفسه، إلى ماركس وتمنياته بأن تزول الطبقية بعد أن وضّح أسبابها، وحتى وإن تقوضت المثالية مع المدرسة السلوكية، إلا أنها رجعت بعد ذلك بقوة، فبعض المفكرين السياسيين بدأوا بمزيد من الجدية ببعض التطبيقات الممكنة للمثالية متسلحين بأدوات وأساليب علمية واقتصادية، ونجحوا بالفعل في تطبيق بعض النماذج المثالية كخلقهم مثلا لدولة الرفاه[3].

2- المدرسة الوضعية (الإمبريقية) Positivism

الوضعية عبارة عن حركة فلسفية تتميز بتشديدها على العلم والمنهج العلمي بصفتهما مصدر المعرفة الوحيد، كما إنها تميز تمييزاً قاطعاً بين عالم الحقائق وبين عالم القيم، والوضعية في معناها الواسع النطاق، موقف ينطوي على الفكرة القائلة إن هدف المعرفة هو ببساطة وصف الظواهر التي نختبرها، وهدف العلم الالتصاق بما نلاحظه ونقيسه[4]. ومن وجهة نظر الوضعية يُعتبر العلم عبارة عن وسيلة لبلوغ الحقيقة، لفهم العالم فهماً كافياً يمكن التنبؤ به والتحكم فيه، فالعالم والكون حتميان يخضعان لقوانين السبب والنتيجة التي يمكننا تبيّنها إذا طبقنا مقاربة المنهج العلمي الفريدة. ويؤمن مؤيد الوضعية بالمذهب التجريبي، وهي الفكرة القائلة إن الملاحظة والقياس يؤلفان جوهر العلم، ويبقى الإختبار المقاربة الرئيسة للمنهج العلمي في محاولة لتبين قوانين السلوك[5].

---

[1] The Encyclopedia of political science, (Thomas George Kurian, and others), op. cit, p 755.
[2] Ibid, p 1733.
[3] Thomas Magstads, Understanding Politics: Ideas, Institutions, and Issues, p 71.
[4] مارتن غريفيثس، وتيري أوكالاهان، مرجع سابق، ص 456.
[5] نفس المرجع السابق، ص 457.

ولقد تجلت الوضعية بوضوح من حوالي وبعد سنة 1850م، حين كان من المطلوب تخليص الفلسفة من شائبة جميع عناصرها التي لا تقع تحت التجربة، من أجل الوصول إلى مثال معرفة صحيحة علمياً، وليس تقديم المصلحة الإجتماعية والعملية كما كان سائدا من قبل[1]؛ وارتبطت الوضعية بمؤسسها Augoust Comte الذي أسس لنزعة عقلية بسيطة وفقاً لإرادة واعية ترتكز على إرادة الأخذ بالوقائع وعدم تجاوزها أبدا، وأن العلوم الإختبارية هي التي تمدنا بنموذج اليقين بواسطة اكتشاف وبلوغ العلاقات والقوانين التي تحكم الوقائع[2]. ووصل Comte إلى هذه الرؤية بعد أن بيّن بأن تاريخ العلوم عرف ثلاثة مراحل: المرحلة الثيولوجية **Theological**، المرحلة الميتافيزيقية **Metaphysical**، وأخيرا المرحلة الوضعية، وتطور كل فرع ليس فقط محتوم **Inevitable**، وإنما غير قابل للعكس **Irreversible**، بمعنى أن تطور أي معرفة لابد وأن يأخذ دائما هذه التراتبية[3].

والوضعية تميز بين العلوم الإمبريقية والعلوم غير الإمبريقية مثل الرياضيات والمنطق، كما تختلف نظريات وقوانين العلم الإمبريقي عن باقي التصورات الميتافيزيقية، وأن المبادئ العلمية تستند على أسس موضوعية من الخبرة الحسية، أي أن الوضعية تؤسس لمبادئ تكشف عن المعرفة ولا تخلقها بالمفهوم الكانطي لإمانويل كانط عن طريق العقل كما كان الوضع سائدا من قبل، وبعبارة بسيطة المعرفة الوضعية تُكتسب عن طريق الخبرة والتجربة، أما المعرفة العقلانية الكانطية فيتم خلقها عن طريق العقل. فإذن الإمبريقية هي نظرية تزعم أن اكتشاف المعرفة يتم ويحصل فقط بواسطة التجربة الحسية للعالم، وللإشارة فقد بدأت هذه النظرية مع دافيد هيوم واستمرت في التطور وفي القرن العشرين تمثلت في الوضعية المنطقية **"Logical positivism"** التي أسستها "حلقة فيينا" سنة 1928 في جامعة النمسا التي ضمت مجموعة من العلماء تشترط فيهم أن يكون الباحث الفلسفي مناصراً للفلسفة التجريبية، وقد أعلنت نفسها للعالم بكتيب عنوانه "نظرة علمية إلى العالم"، وهي تطرح أن كل قضية ذات معنى إما أن تكون متعلقة بوقائع تجربة خارجية، أو تقبل التحليل المنطقي بعيدا عن كل الأطروحات المتافيزيقية[4]. وأنصار "الإمبريقية المنطقية" هم وضعيون بمعنى أنهم كالعلماء، يريدون للإنسان أن يقف بفكره عند الحدود التي يستطيع عندها أن يقيم علمه على تجاربه وخبراته، وأن يثبت صدق أقواله إثباتا يستند إلى الملاحظة الحسية، وإذن فلا يجوز له أن يُجاوز بشطحاته التأملية هذه الحدود، بحيث يزعم ما ليس في وسعه أن يستند فيه إلى الخبرة الحسية[5].

ومفهوم الوضعية أطلق في الأصل للإشارة إلى الدراسات العلمية في العلوم الإجتماعية، لأن العلوم الطبيعية حتى وإن تطورت في سياق متصل الذي هو التجريبية **"Experimentalism"**، إلا أن العلوم الإجتماعية ومن بعدها الفروع التي نشأت إثرها هي التي كانت بحاجة إلى تطبيقات ذلك المفهوم[6]. حيث نجحت الكثير من الدراسات

---

[1] اميل برهييه، تاريخ الفلسفة: الفلسفة الحديثة (1850–1945)، الجزء السابع، (ترجمة: جورج طرابيشي)، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1987، ص 29.

[2] موسوعة لالاند الفلسفية، (أندريه لالاند)، المجلد الأول A-G ، مرجع سابق، ص 1002.

[3] Encyclopedia of Philosophy, (Donald M. Borchert and others), op. cit, vol. 02, p 410.

[4] موسوعة لالاند الفلسفية، (أندريه لالاند)، المجلد الأول A-G ، مرجع سابق، ص 1120.

[5] زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، 1982، ص 235.

[6] Encyclopedia of Sociology, (Edgar F. Borgatta and others), Second Edition, op. cit, p 2192.

اليوم في العلوم الإجتماعية والعلوم السياسية في الوصول إلى نتائج أثبتت صدقيتها في الكثير من نتائجها، وأصبحت علوما تجريبية بفضل استخدامها للمناهج الإمبريقية، وتم دراسة وبحث العديد من الظواهر الإجتماعية والسياسية التي كان يصعب دراستها بالمناهج التقليدية، فمثلا تمت دراسة الجندرة من خلال تحليل صور المرأة في الإعلام وفي الثقافة ومن ثمّ تصنيف المعطيات وفقا لرموز وإحصاءات معينة، وكانت النتائج مرضية وتم تطبيقها في الواقع ونجح العلماء في ذلك وفقا لقيامهم بالتجربة وليس لغير ذلك[1].

وفي علم السياسة، وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ علماء السياسة، تحت تأثير الثورة العلمية وعلى ضوء نجاحها المذهل في العلوم الطبيعية، يحلمون بتحقيق اختراق في العلوم السياسية كالذي أحدثته العلوم الطبيعية، لكي ينتهوا من الدراسات التقليدية السائدة في الحقل آنذاك والتي كانت مفتقدة للصرامة العلمية. ومع أن هذا بدأ مع الكتابات الأولى للوضعية إلا أن قيام علم السياسة على أسس إمبيريقية وعلمية لم ينبعث إلا في منتصف القرن العشرين المنصرم مع قيام "الثورة السلوكية". وقد بلغت ذروة الجدال في علم السياسة حول التوجه السلوكي قد تزامنت مع الكشف الذي جاء به Thomas Kuhn سنة 1962م، حيث تولدت نزعة واضحة لدى أنصار التوجه السلوكي في علم السياسة لتوظيف "نظرية توماس كون" للثورات العلمية لتفسير تاريخ تطور الحقل ولتأسيس أساليب البحث فيه[2]، وتم التعبير عن هذه النزعة بشكل أكثر وضوحا خلال ستينات القرن العشرين المنصرم من خلال بحوث أبرز علماء السياسة حينها كدافيد إيستون وغابريال آلموند، حيث بدأ توظيف مفهوم "توماس كون" عن النموذج المعرفي في النقاش العام حول تطور الحقل وصعود التوجه السلوكي، وكان الهدف من وراء ذلك هو إحداث ثورة علمية في العلوم السياسية كالثورة التي أحدثها "إسحاق نيوتن" في الفيزياء، حيث أن اكتشافاته قلبت مفاهيم المعرفة والتوجه العلمي إلى الأبد، لكن على الرغم من مجهودات السلوكيين ومُنظروا الخيار العقلاني في جعل حقل العلوم السياسية أكثر "نيوتينية"، إلا أن الهيمنة لنموذج معرفي معين بقي غير مكتمل[3].

والدور الذي لعبته الثورة السلوكية كان هائلا حيث تم بلورة اقترابات جديدة وتم توظيف أساليب جديدة للبحث وانتشرت مناهج وطرق غير مألوفة سابقا، بل إن معظم اقترابات علم السياسة التي لا تزال مؤثرة حتى اليوم، مثل مقاربة النظم والتحليل النسقي والوظيفية–البنيوية ، ونظرية الإتصال لكارل دويتش، ونظريات المباريات، وغيرها من النظريات والمقاربات تم وضعها كلها أثناء الثورة السلوكية انتصارا للنزعة العلمية، وهذه الثورة في علم السياسة لم تكن لتوجد ولما تأسست لولا المفاهيم والمقولات الكبرى للمدرسة الوضعية، فهذه الأخيرة تُعتبر بحق المصدر الرئيسي للنزعات العلمية في العلوم السياسية، وحدث هذا النجاح على الرغم من التوجس المبرر الذي أبداه بعض علماء السياسة ذوو التوجه المعياري من الإكتشافات الإمبريقية في الظواهر السياسية[4].

---

1 International Encyclopedia of the Social Sciences, (William A. Darity), 2nd edition, op. cit, vol.02, p 579.
2 The Encyclopedia of political science, (Thomas George Kurian, and others), op. cit, p 503.
3 Shu-Yun Ma, Political Science at the Edge of Chaos? The Paradigmatic Implications of Historical Institutionalism, International Political Science Review, Vol.28, No.01, (2007), p 69.
4 Thomas Schramme, On the Relationship between Political Philosophy and Empirical Sciences, Analyse & Kritik, (Stuttgart), vol.30, (2008), p 616.

ولعل الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها أنصار النموذج السلوكي والنزعة الوضعية في علم السياسة، من قبيل التوجه العلمي البحت والإصرار على توليف نظرية عامة، وجعل أنفسهم هم مركز الحقل، وليس الدراسات الدقيقة والمحدودة التي كان يجب أن تكون هي المركز، لأن الإنجاز والإكتشافات الدقيقة هي أسس المعرفة الدقيقة وليس التوسع غير المدروس، لأن الإصرار على حل الإشكالات السياسية وفقا لنماذج إمبيريقية وجعل كل القضايا السياسية منطقية التحليل، هو السبب في النزوع نحو نموذج معرفي آخر غير السلوكي وغير أصوله الوضعية في علم السياسة، هو توجه جديد لكن بأصول هو الآخر ترجع إلى المدرسة النسبية[1].

3- المدرسة النسبية (المنظوراتية) Relativism

في تطور الحقول العلمية والإنتقال من نموذج إلى آخر خصوصا في علم السياسة، تلعب المدارس الفكرية دورا مؤثرا فلا يقف الأمر عند الأشخاص الذين يمثلون ظواهر فكرية، وإنما لكي يتحقق ويترسخ التغيير ويثبت، لابد من تحول الفكرة إلى مدرسة أو اتجاه[2].

وعلى الرغم من اكتساب النموذج السلوكي دفعا قوياً وهيمنة على علم السياسة في خمسينات وستينات القرن العشرين، فإنه كان من المتوقع أن يتعرض هذا النموذج إلى نفس الإنتقادات التي تعرضت لها المدرسة الوضعية؛ فتناول الجدل حول طبيعة البحث السياسي بين السلوكية وما بعد السلوكية يجب أن يتم على ضوء تحليل وفهم الصراع الإبستيمولوجي الأقدم والأعمق، وترتكز المقولات الكبرى للنسبية على مفهوم أن كل المعرفة الإنسانية هي معرفة نسبية محكومة بالإطار الزماني والمكاني. وترجع جذورها إلى القرن التاسع عشر ومن الصعب إعطاء عنوان محدد لها فقد سميت بالذاتية **"Subjectivism"**، والذرائعية **"Instrumentalism"**، والمنظوراتية **"Perspectivism"**، والنسبية **"Relativism"**، والتاريخية **"Historicism"** التي نمت في إطار الجدل الإبستيمولوجي في الفكر الفلسفي الألماني، والتي تتمسك بأن كل الفكر الإنساني يظل افتراضات غير مبرهن عليها، وأن كل حقبة معرفية تختلف عن أخرى[3].

والنسبية ترجع إلى أي مذهب يتمسك بأن المفاهيم والتصورات تُعتبر نسبية بشروط، وأنها غير عالمية التطبيق، لأن المعرفة في كلياتها مستحيلة الإستكشاف، وقد تبنى هذه الرؤية عدة مذاهب أخرى كالبراغماتية وبعض العلوم المعيارية، والأنثروبولوجية، وبعض نظريات العلوم الإجتماعية، وفي علم السياسة تمثلت في المدرسة ما بعد السلوكية، وبالمجمل فقد تبنى النسبية وقوى بعض مفاهيمها أنصار ما بعد الحداثة **"Postmodernism"**[4]. وللإشارة يجب عدم بين الخلط المذهب النسبي **"Positivism"** في المعرفة وبين نظرية النسبية **"Relativity theory"** التي جاء بها "أنشتاين" Albert Einstein التي هي نظرية فيزيائية[5].

---

[1] Rogers Smith, Should We Make Political Science More of a Science or More about Politics?, PS: Political Science and Politics, Vol.35, No.02, (Jun, 2002), p 201.

[2] محمد نصر عارف، مرجع سابق، ص 302.

[3] The Encyclopedia of political science, (Thomas George Kurian, and others), op. cit, p 727.

[4] Ibid, p 1448.

[5] موسوعة لالاند الفلسفية، (أندريه لالاند)، المجلد الأول A-G ، مرجع سابق، ص 1202.

ولقد كان الفهم التقليدي للبحث العلمي والفلسفي يقوم على تصويره بأنه بحث عن الحقيقة من أجل الوصول إلى تصور نهائي ومحدد حول طبيعة الكل الذي يُعتبر الإنسان جزءاً منه، إلا أن المدرسة النسبية دحضت هذا المفهوم وأعطى الفيلسوف الألماني فرديريك نيتشه دفعة قوية للمذهب النسبي الذي يرى أن الحقبة الحديثة لا تتميز بالنهائية أو المطلق في نظرتها حول الإنسان أو العالم؛ وهو بهذا يتفق مع Kuhn في رؤيته حول تطورالعلم. وفي علم السياسة، اختلف علماء السياسة حول فهمهم للمدرسة النسبية، فالبعض احتضن الفكرة بالكامل، والبعض عارض إلا أنها تجلت بوضوح بعد تراجع النموذج السلوكي، وقد بلغ أحيانا الصراع أشده بين المؤيدين والمعارضين[1].

والإتجاه ما بعد السلوكي في علم السياسة قد تبنى بوضوح الأسس التي تتحدى المقولات الكبرى للمدرسة الوضعية التي أودعت مبادئها وركائزها في النموذج السلوكي، لذلك أخذت بمبادئ المذهب النسبي للمعرفة حتى تجعل من البحث السياسي قابل للتطبيق الجزئي بعيدا عن البحث في كلية التصورات فيما يخص حل الإشكالات السياسية؛ كما أنها استفادت كثيرا من الإتجاهات الإقتصادية في البحث وكذلك الفلسفة الماركسية، وتمثلت أهم المقاربات التي تبنت النسبية هي مقاربة الإقتصاد السياسي، مقاربة التبعية، التحليل الطبقي، الماركسية الجديدة...إلخ، وهي مقاربات تميزت بالبحث الضيق النطاق والمحدود، ولم تبحث عن بناء نماذج نظرية كلية تفسر الظاهرة السياسية تفسيرا تجريدياً كما هو الأمر بالنسبة لنموذج دافيد إيستون للنسق والنظام السياسي، وهو ما كان سائدا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث كانت البحوث والدراسات السياسية تُعنى أكثر بالتجريد المفاهيمي لوصف الحياة السياسية[2].

إن العلوم السياسية بصفة عامة لا ترتكز على الأصول المعرفية السابقة الذكر فقط حتى وإن كانت هي المسيطرة في البحوث السياسية، بل توجد هناك عدة أصول معرفية أخرى يرجع إليها علماء السياسة وقت الحاجة إليها، فالظاهرة السياسية أصعب وأعقد من تُفهم وتُفسر وفقا لاتجاه فكري معين، أو من منطلق مقاربة محددة، كما أنه ليس بإمكان أي رؤية سواء كانت علمية أو غير علمية أن تفرض أساليبها لزمن غير محدد، فالكثير من الظواهر السياسية غير قابلة للتجدد وغير قابلة للملاحظة أو ضبطها ومراقبتها؛ وقد وعى علماء السياسية ذلك جيدا ولم يعد يهمهم علمية الحقل بقدر ما يهمهم فهم وتفسير الظاهرة السياسية وفقاً لخصائصها ولو مؤقتا، خاصة في عالم اليوم... عالم سقوط المفاهيم الكلية وتفكك ما هو مفكك أصلا.

المعرفة الإنسانية بصفة عامة هي محاولة لفهم الأشياء وما هو مبهم، فهي في النهاية مجموعة من المعاني والمعتقدات والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة محاولاته المتكررة لفهم الظواهر المحيطة به، وتلك المعرفة بأنواعها سواء كانت بديهية مُكتسبة من الحواس والخبرة الذاتية أو الجماعية، أو فلسفية واستنباطية منطلقة من مقدمات ومسلمات معينة، أو كانت علمية سواء قرّرها العقل وفقا لتحليلات منطقية أو تجريبية إمبيريقية

---

1 John Gunnell, The Founding of the American Political Science Association: Discipline, Profession, Political Theory, and Politics. American Political Science Review , Vol.100, No.04, (November, 2006), p 479.

2 Gunnell G. John , Handbooks and History: Is It Still the American Science of Politics?, International Political Science Review / Revue international de science politique, Vol.23, No. 04, (Oct., 2002), p 341.

أو استقرائية؛ هي في مجملها معرفة جاءت نتيجة البحث والتساؤل الدائم الذي صاحب الإنسان منذ القدم من أجل فهم وتفسير البيئة والظواهر التي تحيط به، سواء كانت غايته تحصيل معرفة معينة أو البحث المستمر عن الحقيقة.

وعلم السياسة حاول منذ إرهاصاته الأولى ولغاية اليوم الإستفادة من مزايا المعرفة ككل أكانت علمية أو غير علمية، لكن وبالنظر إلى النجاحات التي حققتها الفروع العلمية، فقد حاول هذا الحقل الإستفادة إلى أقصى حد من تطبيقات تلك المعرفة، لكن وبالنظر إلى الخاصية التي تتميز بها الظاهرة السياسية وجد علماء السياسة صعوبات جمة في تحوير المعرفة السياسية إلى معرفة علمية لها مناهجها وأساليبها البحثية، كما أن النقد الشديد الذي تعرض إلى الدراسات السياسية العلمية من داخل علماء الحقل نفسه أثّر على طموح ذوو التوجه العلمي في البحث، إلا أن ذلك لم يمنع من المزج بين الطرح العلمي واحترام خصائص الظاهرة السياسية، خاصة بعد أن وعى علماء السياسة أن تلك الظاهرة ليست المشكلة في تعقيدها بل في عدم ثبات متغيراتها حتى وإن كانت من أبسط الظواهر.

وعلم السياسة لا يشكل شذوذاً عن النسق المعرفي ككل، فهي مع الكثير من فروع العلوم الإجتماعية والسياسية ترجع في أصولها إلى جذور مشتركة، أما تطورها فقد خضع لعدة اعتبارات منها ما يخص تطور المعرفة نفسها والديناميات وحركة البناء المعرفي الطبيعية التي ميزتها أثناء مراحل تطورها، ومنها ما هو خارج عن نطاق تراكمية النسق المعرفي سواء كان علمي أو معياري وهو ما يتمثل في التأثيرات غير المعرفية، وتتشكل عموما من الظواهر الكلية والبيئية التي تطبع حياة الإنسان كفرد أو كجماعة، كالمنظومة الحضارية والمجتمعية ككل أو الظواهر التي تبني تلك المنظومة مثل الظواهر السياسية والإقتصادية وغيرها.